السورة السابعة عشرة

الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾

هذه السورة كانت عند نزولها بمثابة قنبلةٍ ضخمة، أو "زلزلةٍ" حقيقيّة، تتفجّر في أفئدة العرب أو المسلمين الذين سمعوها لأوّل مرّة، ليس بسبب لغتها الجديدة فحسب، بل بسبب الصور والمعاني الهائلة التي تضمّنتها، والحدث العظيم الذي تتحدّث عنه، وقد كان حتّى ذلك الوقت بعيداً تماماً عن العقل العربيّ وثقافته الجاهليّة الوثنيّة، وهو يوم القيامة.

وترتيب السورة التراجعيّ في القرآن هو السادسة عشرة، وهي مكوّنةٌ من ٣٦ لفظاً وسنقف فيها عند ٥٣ موقعاً جديداً على العرب وعلى اللغة العربيّة، وظلّ كثيرٌ منها كذلك حتّى اليوم، بل ظلّ جزءٌ كبيرٌ من هذه المواقع مختصّاً بالسورة وحدها دون غيرها من السوَر، مكوِّنةً بذلك شخصيّتها اللغويّة المستقلّة، كالألفاظ: (زُلزلت، زِلزالَها، أثقالها، تُحدّث، أخبارها، يَصدُر، لِيُرَوا، يَرَه) وكذلك التراكيب والتعبيرات والصور: (زُلزِلت زِلزالَها، أخرجت أثقالَها، قال.. ما لَها، تُحدّث أخبارَها، أوحَى لها، يَصدُر الناسُ أشتاتاً، ليُرَوا أعمالَهم، مثقال ذرّةٍ خيراً، مثقال ذرّةٍ شرّاً).

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

في السورة ٧ أدوات و ٢٩ كلمةً، وبين هذه الكلمات ما لا يقلّ عن ١٢ كلمةً جديدةً في معناها، أو في لفظها، أو في لفظها ومعناها معاً:

١ – ٢ – زُلزِلَتْ/ زِلزالَها:

لا نعثر على هذين اللفظين أو مشتقّاتهما في الشعر الجاهليّ إلاّ في أبياتٍ سبق أن أكّدنا شكوكنا في جاهليّتها وفي نسبتها للحُصَين الفَزاريّ (ت١٠ ق.هـ) لاعتمادها بشكلٍ كاملٍ تقريباً على ألفاظ سورة (الزلزلة)، ولانطلاقها بشكلٍ حَرْفيٍّ من المفهومات الدينيّة الإسلاميّة من ناحيةٍ أخرى، كما يتّضح من هذا البيت:

وخَـفَّ المـوازينُ بالكافرين وزُلـزِلَـتِ الأرضُ زِلـزالَـهـا

ورغم أنّ مشتقّات الفعل (زلزل) تَتردّد في بقيّة السوَر ٤ مرّاتٍ أخرى فإنّ سورة (الزلزلة) تستقلّ بهذا الفعل المرتبط بتاء التأنيث، كما تستقلّ بمصدره المضاف إلى ضمير المفردة الغائبة (زِلزالها). وحين يتكرّر الفعل ثانيةً في سورة (البقرة) يأتي، هناك أيضاً، في صيغته المبنيّة للمجهول، وهي من الصيغ الفعليّة الأكثر استعمالاً في القرآن كما سبق أن مرّ بنا:

– ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ ﴾ [البقرة: ٢١٤]

ويندر ورود اللفظ في الحديث الشريف إلاّ أن يكون في سياق الآيات التي ورد فيها. وهو يأتي فيه على الأغلب بغير معنى الزلزلة الأرضيّة المعروفة، كما في قوله ﷺ:

– اللهمّ اهزمهم وزَلزِلْهم[1].

– فإذا رفعتم نعشَها فلا تزعزعوها ولا تزلزلوها[2].

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٠٧٣، حديث رقم ٢٧٧٥.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص١٩٥٠، حديث رقم ٤٧٨٠.

٣- تُحدِّثُ:

حمل الفعل هنا معنىً مختلفاً عن المعنى الذي تعارف عليه العرب، فهو من الأفعال التي تتعدّى إلى مفعولين، وقد فقد هنا مفعوله الأول، ثمّ لم يتعدّ إلى مفعوله الثاني بحرف (الباء) أو بالحرف (عن)، وهو ما اعتدنا أن نفعله في لغتنا. نحن نقول مثلاً:

حدّثني بما جرى، و:

حدّثتُه بما في نفسي

سأحدّثكم عنه

وهذا شأنه في الحديث الشريف أيضاً، كقوله ﷺ:

- .. أمّا الذي رأيتُه يُشَقُّ شِدْقُه فكَذّابٌ يُحدِّثُ بالكَذبة[١].

- .. ولكنْ سأحدّثُكَ عن أشراطِها[٢].

ورغم أنّ اللفظ خاصٌّ بهذه السورة ولا يتكرّر في غيرها؛ فإنّ الصيغتين الأخريين له في القرآن تعدّت كلتاهما بالباء:

- ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ٧٦]

- ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضُحى: ١١]

من أجل هذا كان لا بدّ من تقدير الفعل على أنّه بمعنى (تروي) أو (تحكي) فكلا هذين الفعلين يكتفي بمفعولٍ واحدٍ، ولا يتعدّى أيٌّ منهما بالباء.

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٦٥، حديث رقم ١٣٢٠.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص١٧٩٣، حديث رقم ٤٤٩٩.

obeikan.com

٤- أَوحَى:

رغم ورود هذا الفعل مع مشتقّاته ٧٧ مرّةً في القرآن فإنّنا لا نجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً في بيتٍ يُنسب للشنفرى (ت٧٠ ق.هـ) يقول فيه:

ونائحةٍ أُوحيتُ في الصُبحِ سَمْعَها فَرِيْـعَ فـؤادي واشمـأزَّ وأَنكَرا

ومن الواضح، مع ندرة اللفظ في هذا الشعر، اختلاف معناه القرآنيّ عن المعنى الجاهليّ، إذ يختصّ في معظم استعمالاته القرآنيّة بالاتّصال الإلهي مع البشر أو الأنبياء، وهو اتصالٌ من نوعٍ آخر غير الكلام المباشَر، ممّا توضّحه الآية:

- ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]

وربّما أُطلق اللفظ على النصّ الموحَى نفسه، أي القرآن الكريم، كقوله تعالى:

- ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]

وتنفرد سورة (الزلزلة) بتعدّي هذا الفعل باللام، رغم أنّ الفعل يتكرّر في القرآن ٧٢ مرّةً أخرى تعدّى في ٦٦ منها بحرف الجرّ (إلى)، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ ﴾ [القَصص: ٧]

وتعدّى بنفسه، من غير وسيط، في الحالات الستّ الأخرى.

٥- يَصْدُر:

الصدور بالمعنى الجاهليّ هو العودة من مصدر الماء بعد الشرب أو التزوّد منه، أمّا هنا فهو بمعنى خروج الناس من قبورهم، أو عودتِهم من الموت إلى الحياة، أو رجوعِهم إلى الله يوم الحساب، وهو معنىً جديدٌ منحه القرآن للفعل. ولا يتكرّر اللفظ في القرآن في غير هذه السورة.

٦- لِيُرَوا:

مع اختصاص سورة (الزلزلة) بهذا اللفظ؛ إذ لا يتكرّر بهذه الصيغة مرّةً أخرى في القرآن، يخلو الشعر العربيّ منه تماماً، قبل الإسلام وبعده، وكذلك الحديث الشريف. وهو من الحالات النادرة في القرآن التي يتعدّى فيها فعلُ الرؤية، البصريّ، إلى مفعولين مع مجيئه في صيغة المبنيّ للمجهول (الواو هنا هي بمقام المفعول الأول لهذا الفعل، أي نائب فاعل، و "أعمالَهم" مفعولٌ ثانٍ).

أمّا ما عرفه الشعر الجاهليّ من هذه الصيغة فممّا يقتصر تعدّيه على مفعولٍ واحدٍ، كما في هذه الأبيات:

في ليلةٍ لا يُرى بها أحدٌ يَسعى علينا إلاّ كواكبُها
أُحيحة بن الجَلاح (ت١٢٩ ق.ه)

ثمّ فينا للقِرى نارٌ يُرى عندها للضَيفِ رُحْبٌ وسِعَةْ
الأفْوَه الأوْديّ (ت٥٤ ق.ه)

ولو أنّ للموتِ شخصاً يُرى لروّعتُهُ ولأكثرْتُ رُعبَهْ
عنترة (ت٢٢ ق.ه)

أمّا في الحديث الشريف فيتّخذ الفعل، في صيغته المبنيّة للمجهول، معنىً مختلفاً هو (ظنّ)، كما في العبارات النبويّة:

- .. أينَ أُراهُ السائلُ عن الساعة؟ قال ها أنا يا رسولَ الله..[١].

- .. فقال: ما هذا؟ فأُخبِر، فقال النبيّ ﷺ: آلبِرَّ تُرَونَ بهنّ؟ فترك الاعتكافَ ذلك الشهر[٢].

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٣، حديث رقم ٥٩.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٧١٥، حديث رقم ١٩٢٨.

– .. أنّ جبريل كان يعارضني بالقرآنِ كلَّ سنةٍ، وإنّه عارضَني العامَ مرّتين، ولا أُراهُ إلاّ حضرَ أجَلي.(١)

٧– ٨– مِثقال [مكرّر]:

رغم ورود هذا اللفظ ٨ مرّاتٍ في القرآن، وهو دائماً بمعنى (وَزْن)، يختفي تماماً من الشعر الجاهليّ، ولكنّنا نجده وقد انتقل إلى الحديث الشريف أيضاً وبالاستعمال القرآنيّ نفسه.

٩– ١٠– ذَرّة [مكرّر]:

يتكرّر هذا اللفظ ٦ مرّاتٍ في القرآن، مرتبطاً دائماً باللفظ (مثقال)، ولا أثر له في الشعر الجاهليّ. وإنّما نعثر على اسم الجنس منه مرّةً واحدةً في بيتٍ لامرئ القيس (ت٨٠ ق.هـ) وهو فيه بمعنى صغار النمل:

مِنَ القاصراتِ الطَرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ مِنَ الذَرِّ فوقَ الأَتْبِ منها لأَثّرا

١١– ١٢– يَرَه [مكرّر]:

الجديد في هذا اللفظ هو معناه بشكلٍ خاصّ. فهو يختلف عن المعنيين الوحيدين اللذين عرفهما العرب لهذا الفعل، وهما: الرؤية البصريّة، ثمّ الرؤية القلبيّة (أي الظنّ) كما رأينا في الأحاديث الشريفة السابقة. أمّا الرؤيا في هذه الآية فهي بمعنى تلقّي الحساب أو نَيل الجزاء، أي: فمَن عمِل شيئاً في الدنيا، خيراً أو شرّاً، يلقَ جزاءه، عقوبةً أو مكافأةً، في ذلك اليوم. وهذا المعنى القرآنيّ لم يعرفه الحديث الشريف أيضاً، إلاّ أن يقع في سياقٍ قرآنيّ.

والأغرب من هذا أنّه من بين ٣٢٦ مرّةً ورد فيها الفعل (رأى) مع مشتقّاته في القرآن؛ لا نجد هذا المعنى الأخير إلاّ في ثلاث حالاتٍ فحسب، والحالات الثلاث اجتمعت كلّها في هذه السورة الصغيرة، وهي الفعل (يُرَوا) والفعل المتكرّر (يَرَه).

(١) المرجع السابق، ج٣، ص١٣٢٦، حديث رقم ٣٤٢٦.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- زِلزالَها:

هذا تعبيرٌ لم يعهده العرب في لغتهم، لا قبل الإسلام ولا بعده، فإضافة المفعول المطلق إلى فاعله وهو الضمير (ها) العائد على (الأرض) أمرٌ خارجٌ عن أعرافهم اللغويّة. من منّا يقول مثلاً:

طارتِ الطائرة طيرانها، أو:

ارتُكبتِ الجريمة ارتكابها، أو:

هُزَّت العمارةُ اهتزازها..

٢- وأخرَجتِ الأرضُ:

أعرافنا اللغويّة، مرّةً أخرى، لا تُكرّر الفاعلَ نفسه في جملتين متتاليتين كما وقع في هاتين الآيتين، بل تستغني عنه بالضمير. نحن نقول هنا:

- وأخرجت أثقالَها

هكذا من غير إعادة لفظ (الأرض) من جديد. إنّنا لا نقول مثلاً:

إذا جاء الامتحانُ وبدأ الامتحانُ، ولا:

أشرقتِ الشمسُ وأضاءت الشمسُ، ولا:

أُذيعَ الخبرُ وانتشر الخبر..

٣- أثقالَها:

هذه صورةٌ بيانيّةٌ جديدة، بل صورتان في صورةٍ واحدة لم يعرفهما العربيّ من قبل. فالأثقال هنا هي ما في الأرض من رميم الموتى من البشر والحيوانات، أمّا الأرض فهي كدابّةٍ ضخمةٍ تَحمل هذه الأثقال على ظهرها، أو في رحِمها، أو كسفينةٍ عملاقةٍ تحمل الأموات في جوفها، حتّى تكاد ينوء بها الحمل لثقلها.

٤- وأَخرجتِ الأرضُ (أثقالَها):

بالمقارنة مع الصورة الثابتة التي رأيناها في اللفظ (أثقالها)؛ لنا أن نتخيّل الآن ما أضاف اللفظ (أخرجت) إلى هذه الصورة من حركةٍ وحياة. هذه هي الأرض الآن تلفظ أحشاءها التي أُثقِلت بها، حِملاً إثر حِمل، بما حوته من أجيال البشر المتلاحقة التي عاشت عليها ثمّ دُفنت فيها منذ آدم عليه السلام حتّى يوم القيامة، وبما حمله هؤلاء البشر من ذنوبٍ وأعمالٍ أثقلت كواهلهم وملأت صحائفهم، وكذلك بما أخفته الأرض في باطنها من أحياءٍ أخرى، ومن عجائب وأسرارٍ لا يعلمها إلاّ الله، فأفصحت عنها في ذلك اليوم الرهيب، فوجاً إثر فوج، وولادةً إثر ولادة.

٥- وقال الإنسانُ:

لن نجد هذا التركيب القرآنيّ في أيٍّ من كتب تراثنا الأدبيّ، قبل الإسلام أو بعده، شعره أونثره، بل إنّه، فوق ذلك، اقتصر في القرآن على هذه السورة وحدها دون غيرها، ولكنّنا نجده في سورٍ أخرى في صيغة المضارع ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾. ولصيغة الماضي هنا خصوصيّتها وخطورتها؛ وذلك بما تحمله من إخبارٍ تحذيريٍّ مقلِق، لأنّها تتحدّث عن المستقبل بصيغة الماضي بحيث تُشعرنا بأنّ هذا الحدث قد وقع علينا حقاً وكأنّنا نعيشه الآن، فلا فرصة أمامنا للمناورة أو الفرار منه.

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشريف.

٦- يومَئذٍ [الأولى]:

من الأعراف اللغويّة للعربيّة أن يرتبط جواب الشرط، في مثل هذا السياق، بحرفٍ هو الفاء، وقد خلت الآية الكريمة من هذا الحرف. نحن نقول:

إذا اقترب الموعد فعند ذلك تهيّأ، أو: فتهيّأ عندها. ونقول:

إذا عزمتَ أمرك فحينئذٍ اتّخذْ قرارك. ونقول:

إذا رأيتَه يسرق فعاقِبْه

٧ – تُحدّث أخبارَها:

في هذا التعبير الجديد صورةٌ جديدةٌ أيضاً على الخيال العربيّ لم يعرفها من قبل. وبغضّ النظر عمّا إذا كانت الأرض ستتحدّث بذاتها ذلك اليوم أم لا؛ أي بغضّ النظر عن كون هذا الكلام حقيقةً أو مجازاً، فإنّ مجرّد الحديث عن "كلام" يصدر عن الأرض من شأنه أن يثير مخيِّلة العربيّ الذي يسمع هذا المعنى الغريب لأوّل مرّة. وقد رُوي عن الرسول ﷺ قوله:

- تَحَفّظوا من الأرض فإنّها أمُّكم، وإنّه ليس مِن أحدٍ عاملٌ عليها خيراً أو شرًّا إلاّ وهي مُخْبِرةٌ به[١].

كما رُوي عنه ﷺ في شرح هذه الآية:

- قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: "يومَئذٍ تُحدِّثُ أخبارَها"، قال: أتدرون ما أخبارُها؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: فإنّ أخبارَها أن تشهدَ على كلِّ عبدٍ وأَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهرِها، تقول: عَمِل كذا وكذا يومَ كذا وكذا، فهذه أخبارُها[٢].

والتعبير مختصٌّ بهذه السورة، فلا يتكرّر في غيرها، ولا نجده في الحديث الشريف، إلاّ أن يرِد في سياق التعليق على هذه السورة كما في الحديث أعلاه.

٨ – ربَّكَ:

بعد التحدّث عن غائبٍ يعود على الإنسان (هو) في الآية الثالثة؛ تتوقّع الأذن، التي تستسلم هنا عادةً لخَدَر العادة والاستمراريّة في لغتنا البشريّة، أن تكون الآيةُ هنا استمراراً وتكملةً للحديث في تلك الصيغة، كأن تكون مثلاً: بأنّ ربّه (ربّ الإنسان) أوحى لها، ولكن "الالتفات" القرآنيّ يوقظ الأذن من هذا "الاستسلام

(١) الطبرانيّ، **المعجم الكبير**، مرجع سابق، ج٥، ص٦٥، حديث رقم ٤٥٩٨.

(٢) البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مرجع سابق، ج١٦، ص٣٦٠، حديث رقم ٧٣٦٠.

الكسول" لتصحو على منعطفٍ لغويٍّ مفاجئٍ لم تكن تتوقّعه؛ حين يقفز بها، ومن غير أيّ إنذار، من الغائب ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى المخاطب (ربَّكَ).

٩- أخبارَها بأنّ ربَّك:

لو خلا السياق هنا من اللفظ (أخبارها) فكان هكذا: تُحدّث.. بأنّ ربّك، لعاد التعبير إلى قواعده وأعرافه المعهودة في لغتنا البشريّة، ولكنّ دخول مفعولٍ جديدٍ بين الفعل (تُحدّث) ومفعوله الأصليّ، أو ما حلّ محلّ هذا المفعول الأصليّ وهو شبه الجملة ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾، جعل الصيغة غير عاديّة، أو نقلها بالأحرى من البشريّة إلى القرآنيّة.

١٠- أوحى لها:

ينطبق على هذا التعبير تحليلُنا للتعبير السابق ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾. إنّه خطابٌ إلهيٌّ موجّهٌ من الخالق في السماء إلى مخلوقٍ غير ناطقٍ ولا عاقل، وهل تَسمع الأرضُ وحي الله وكلامَه: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾؟ فإن كان ذلك حقيقةً فهو معنىً عجيبٌ سيهزّ العربيّ الذي يسمع مثله لأوّل مرّة، أمّا إن كان مجرّد صورةٍ مجازيّةٍ فنيّةٍ تمثّل الأرض وكأنّها مخلوقٌ حيٌّ يسمع ويرى، فهي أيضاً صورةٌ عجيبةٌ وجديدةٌ على الخيال العربيّ لم يسمع بمثلها من قبل.

١١- يومَئذٍ [الثانية]:

الغريب أنّ هذا هو ظرف الزمان الثالث الذي تقع فيه الزلزلة. فالأوّل (إذا) ظرفٌ شَرطيٌّ متعلّقٌ بجوابه، أي بجواب الشرط كما تعلّمنا في دروس النحو، وإذن فالظرف الثاني ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ والثالث ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ﴾ ينضمّان إلى الأوّل ليشاركاه عمليّة التعلّق، وهكذا يمكن أن نصوغ العبارة بلغتنا على الشكل التالي:

يومَ تُزلزَل تلك الزلزلة؛ ستحدِّث الأرضُ بأخبارها، ويَصدر الناسُ منها أشتاتاً للحساب،

وهكذا لا نجد في عبارتنا البشريّة، كما نرى، مكاناً لأكثر من ظرفٍ واحد (يومَ). ولا شكّ أنّ في اجتماع الظروف الثلاثة على حدثٍ واحد يُضفي على هذا الحدث من التهويل والتعظيم ما لا يقوم بالتعبير عنه ظرفٌ بمفرده في لغتنا البشريّة.

١٢- يَصْدُرُ:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة أنّ هذا الفعل قد اكتسب في الاستعمال القرآنيّ معنىً جديداً. وهذا المعنى جاء من خلال الصورة البيانيّة الجديدة التي فاجأ القرآن بها العرب، فالخروج من القبور بعد هذا الرقاد الطويل أشبه بعودة الشاربين من نبع الماء بعد الشبع والريّ. وإنّها في الواقع عدّة صورٍ في لفظٍ واحد:

أ- فالقبور هي النبع أو مكان الماء،

ب- والنوم الطويل، أو الموت، هو الماء،

ت- والمستيقظون من قبورهم هم العطاش الذين ارتووا من النوم/ الموت،

ث- والحساب والوقوف بين يدي الله هو المنزل أو المآل الذي ينتهون إليه عائدين من نبع الماء.

١٣- يَصدُرُ الناسُ أشتاتاً:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ، فضلاً عن أنّه مختصٌّ بهذه السورة وحدها، ولو أردنا التعبير عن المعنى نفسه بلغتنا لقلنا: يعود الناس متفرّقين، أو يرجعون فصائل، أو يرتدّون فِرقاً وجماعات. ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشريف.

١٤- ليُرَوا أعمالَهم:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة كيف اكتسب الفعل (رأى) فيها معنىً جديداً لا يشاركه فيه، حتّى في القرآن، أيّ فعلٍ آخر أو اسم مشتقٍّ من جذره خارج هذه السورة. وهذا المعنى الجديد يقوم على أرضيّةٍ بيانيّةٍ اكتسب من خلالها هذه

الجدّة، فليست الأعمال هي التي سوف تُرى يومَ القيامة، وإنّما نتائجها وجزاؤها: إنْ خيراً فمكافأةً ونعيماً، وإن شرّاً فعقوبةً وناراً، وهي صورةٌ جديدةٌ في القاموس البلاغيّ العربيّ. ولا وجود للتعبير في الحديث الشريف.

١٥- ١٦- فمن يعمل/ ومن يعمل:

في كلا التعبيرين نوعٌ جديدٌ من الالتفات. فالصورة التي ترسمها لنا الآيات منذ مطلع السورة حتّى قوله تعالى: (ليروا) هي صورة أحداث يوم القيامة: الزلزلة، ثمّ النشور، ثمّ ذهول الإنسان لما يجري حوله، ثم حديث الأرض العجيب، ثمّ تقدُّم البشر جماعاتٍ نحو منصّة الحساب الرهيبة، لينظر كلّ إنسانٍ ما عمل في الدنيا (أعمالَهم)، وهذه الكلمة الأخيرة تعود بنا القهقرى إلى الحياة الدنيا، لأنّ المقصود طبعاً رؤيتهم لما (عملوه سابقاً) في حياتهم الأولى، ثمّ ماذا؟ إنّها الآن المحكمة الكبرى: فمن عمل خيراً في الدنيا نال اليوم خيراً، ومن عمل شراً نال اليوم شراً.

هل تنبّهتم إلى أنّني استعملت الفعل الماضي (عمِلَ) في المرّتين وليس المضارع (يعمل) الذي ورد في الآيتين؟ طبعاً لأنّ عمل الإنسان في الدنيا سيكون في ذلك اليوم في حكم الماضي، ولكنّ القرآن عبّر عن هذا الماضي، في المرّتين، بالمضارع (يعملْ)، فكان التفاتاً من الحاضر إلى الماضي، رغم استخدام صيغة المضارع (يعمل) للتعبير عن ذلك الماضي، وهو أعجب ما في هذه اللغة القرآنيّة.

١٧- ١٨- مثقالَ ذرّةٍ [مكرّر]:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصٌّ لا يشاركه فيه نثرٌ عربيٌّ أو شعرٌ، وقد تسرّب بعد ذلك بكثرةٍ إلى الحديث الشريف، كما سبق أن ذكرنا، رغم خلوّ الشعر الجاهليّ تماماً منه، ولكن يغلب في الحديث النبويّ إضافة (مثقال) إلى (حبّةِ خردل) أو (شعيرةٍ) أو (دينارٍ) بدلاً من (ذَرّة).

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- إذا زُلزِلَتِ الأرضُ زِلزالَها:

هذه سبيكةٌ لا أذكر أنّها تكرّرت في سورةٍ أخرى من القرآن، بَلْهَ كلامَ البشر. وتأتي خصوصيّتها من ترتيب كلماتها الذي كوّن لها إيقاعها النحويّ المتفرّد، ومن خصوصيّة استعمال الظرف الشَرطيّ (إذا) كما رأينا، ثمّ من هذه الإضافة الجديدة للمفعول المطلق (زِلزال) إلى الضمير العائد على الأرض (ها) وهي صاحبة الزلزلة، كما سبق أن بيّنّا أيضاً، والتي أكسبت المضاف معنى الهول والعظمة والضخامة، ممّا قد نعبّر عنه في لغتنا البشريّة بقولنا:

عندما تُزلزَل تلك الزلزلةَ العظيمة، أو:

عندما تُزَلزل زلزلةً عظيمة

٢- يومَئذٍ تُحدِّثُ أخبارَها بأنّ:

افتتاح هذه السبيكة بالظرف القرآنيّ الصارخ اللون (يومئذٍ)، ثمّ بناؤها اللفظيّ المتفرّد، والعلاقات اللغويّة الجديدة التي تَحدّثنا عنها بين الفعل (تُحدِّث) ومفعولِه (أخبارَها)، ثمّ الجملة غير العاديّة التي تلت هذا المفعول؛ وجاءت وكأنّها في موضع مفعولٍ ثانٍ ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ ، هذا كلّه يمنح السبيكة خصوصيّتها.

٣- يومَئذٍ يَصدُرُ الناسُ أشتاتاً ليُرَوا أعمالَهم:

مرّةً أخرى تبدأ هذه السبيكة بالظرف القرآني الخاصّ (يومئذ) ثمّ يتلوه التعبير القرآني الخاصّ أيضاً ﴿ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ وهذا يتلوه التعبير الخاصّ الآخر ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ ذو اللفظين اللذين عرفنا تميّز طبيعة الأوّل منهما، بمعناه المجازيّ المتفرّد، كما عرفنا تميّز علاقته مع شريكه اللفظ الثاني. إنّ في هذا كلّه، فضلاً عن الإيقاع اللفظيّ للعبارة بمجملها (يومئذٍ يعمل العاملون أعمالاً ليُعملوا أعمالهم)، ما يكفي ليمنح السبيكة فَرادتَها واستقلاليّتها.

٤- فمن يعملْ مِثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَه:

فضلاً عن بنائها اللغويّ والإيقاعيّ؛ تأتي خصوصيّة هذه السبيكة من خصوصيّة استعمال أجزائها (يعمل) و (مثقالَ) و (ذرّةٍ) و (يَرَه) كما مرّ بنا. ويضاف إلى ذلك الاستغناءُ بالضمير (الهاء) في (يَرَه) عن المفعول الحقيقيّ الذي يمكن أن يكون (المثقال) أو (الخير)، أو ربّما، كما اقترحنا، (الجزاء) الذي سيناله العامل لقاء ما عمله من خير.

٥- ومن يَعمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَه:

ينطبق على هذه السبيكة كلّ ما تحدّثنا به عن السبيكة السابقة.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- زُلزِلت الأرضُ زِلزالَها:

من خلال إدراكنا لتميّز يوم القيامة، واختلافه عن أيّ وصفٍ مطابقٍ لخيالنا أو أيّ حدثٍ معروفٍ لبني لبشر، نستطيع أن نقدّر أن الزلزلة هنا ليست من نوع الزلازل التي تشهدها الأرض من حينٍ إلى آخر. وقد قيل في هذه الزلزلة إنّها (النفخة الأولى)، وقيل أيضاً إنّها تتزلزل في هذه النفخة، ثمّ تتزلزل ثانيةً فتُخرِجُ موتاها، وذلك لقوله تعالى ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات: ٦-٧].

ويأتي المصدر(زِلزالها) نكرةً أو شبه نكرةٍ؛ إذ أضيفَ إلى فاعله؛ أي الضمير "ها" العائد على الأرض المتزلزلة نفسها، فهو، بإضافته إلى نفسه، كأنّه لم يُضَف، إذ لم يكتسب أيّ تعريفٍ بالإضافة؛ بحيث أعطى الآية كلّها، بهذا الغموض والتنكير، قوّةً احتماليّةً إضافيّةً في تصوّرنا لطبيعة تلك الزلزلة وما يُلمّ بالأرض من عظائم.

٢- أخرَجتِ الأرضُ أثقالَها:

هل لنا أن نتصوّر طبيعة "الأثقال" التي ستُفرزها الأرض من أحشائها يوم النشور: بَشر، حيوانات، جنّ، كنوز، نيران، حِمم، مدُن، حضارات، ما نعلم وما لا نعلم؟.. وهل لنا أن نتصوّر هذا "الإخراج" وكيف تتمّ عمليّته، وما هي مراحله، وأيَّ شكلٍ يأخذ؟ إنّ الأبواب مفتوحةٌ أمام خيالنا لما لا نهاية له من الصور والوقائع.

يسترسل خيالنا في هذا كلّه ونحن من جديدٍ أمام نكرةٍ، أو ما يشبه النكرة "أثقال"؛ إذ لا تعريف لهذا اللفظ إلاّ الإضافة إلى الضمير العائد إلى صاحبة هذه الأثقال: (الأرض)..

٣- وقال الإنسانُ ما لَها:

أمام هذا الخليط من المخلوقات المنبعثة من الموت، والأحداث التي يشيب لهولها الولدان، يفاجئنا هنا لفظ (الإنسان). فأيّ إنسانٍ هذا الذي يقف متسائلاً متعجّباً ممّا يجري (ما لها)؟ ولماذا أفرد القرآن هذا اللفظ (الإنسان) ولم يجمعه (الناس أو البشر مثلاً)؟ وممّ يتعجّب هذا الإنسان؟ تُرى: من زلزلة الأرض؟ أم من انبعاث الموتى منها أحياء؟ أم من نطقها وهي تدلي بأخبارها وأخبار من فيها؟ أم من كلّ ذلك معاً وأكثر؟

٤- تُحدّثُ أخبارَها:

عرفنا اختلاف المفسّرين حول طبيعة "حديث الأرض" هنا، هل هو حقيقيٌّ أم مجازيّ، رغم وجود أكثر من حديثٍ شريف في توضيح هذا "الحديث". فهل هي مُخبِرةٌ بأنّ الله أوحى لها بالكلام؟ أم مُخبِرةٌ بما أوحي لها بأن تتكلّم فيه وتُخبر به؟ وإذا كانت "مُخبِرةً" بما نعمله على ظهرها، كما جاء في الحديث، فبأيّ طريقةٍ يتمّ هذا الإخبار، وهل هو كلامٌ ككلام البشر؟ وبأيّة لغةٍ؟ وما طبيعة صوتها ودرجة

ضخامته؟ وأين يكون فمها ومن أين يصدر الكلام؟ واسأل نفسك بعد ذلك ما شئت من مثل هذه الأسئلة. وقيل في تفسير الآية:

إنّها تُحدّث أخبارها بوحي الله لها وإذنه لها،

وقيل: تحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقال،

وقيل: تحدّث بقيام الساعة وأنّ الدنيا قد انقضت،

وقيل: تبيّن أخبارها بالرجفة والزلزلة وإخراج الموتى، وقيل غير ذلك.

٥ - بأنّ ربَّك أوحَى لها:

يلعب حرف (الباء) هنا دوراً كبيراً في تلوين معنى الآية وإغنائه بالاحتمالات:

فهل هو مجرّد حرف تعديةٍ لوصل الفعل قبله (تُحدّث) بمفعوله، أو بما حلّ محلّ هذا المفعول المحذوف، أي (تُحدِّث بأنّ)؟

أم هو حرفٌ سببيٌّ، أي أنّ الأرض تتحدث "بسبب" إيحاء الله لها بالتحدّث؟

أم هو تفسيريٌّ عملُه أن يصل بدلاً ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بمُبْدَلٍ منه (أخبارَها)؛ أي: أخبارها التي تفسيرُها أنّ الله أوحى لها؟

أم هو حرف جرٍّ زائدٌ؛ وجملة (أنّ وما بعدها) بدلٌ من (أخبارَها)؛ أي: تحدّث أخبارها التي هي وحي الله لها؟

ثمّ إنّ الذهن يذهب بعيداً هنا مع اللفظ (أوحى):

فما علاقة الوحي بالخراب الذي يصيب الأرض يومذاك؟ وهل كان الوحي لها أمراً بزلزلتها؟

أم هو أمرٌ بأنْ تلفظ ما في رحمها من أجنّةٍ حملتْها أحقاباً تلو أحقاب؟

أم أمرٌ بأن تشهد على الإنسان فتنطق بما قدّم في حياته من عمل؟

وكلّها معانٍ تحتملها الألفاظ والصياغة الخاصّة لهذه الآية.

٦ – يَصدُرُ الناس:

لنا أن نتخيّل الآن عمليّة "صدور" الناس، وطبيعة هذا الصدور. فقد يكون صدوراً من القبور إلى سطح الأرض، وكيف تُراها تتمّ هذه العمليّة؟ وقد يكون صدوراً يتلو الانبعاث من القبور؛ حين يتوجّه الناس إلى حيث المحكمة الكبرى والنطق بالحكم الأعظم، وكيف تُراه يتمّ هذا التوجّه؟ وأين تُراها تتمّ هذه المحاكمة؟

ثمّ إنّ "الصدور" في اللغة هو العودة من الماء مع الارتواء أو التزوّد بما يلزم منه:

فماذا يحمل الموتى معهم من قبورهم؟

وهل كان مكثهم فيها ارتواءً وتزوّداً بشيءٍ ما؟ وما هذا الشيء؟

وهل كان ما يحملونه، بالأحرى، هو ما تزوّدوا به، لهم أو عليهم، من عملٍ في دنياهم قبل الموت؟

٧ – أشتاتاً:

هذه "الأشتات" تعبّر بنفسها عن اختلاف الأنواع والألوان والأشكال والأجناس والديانات والفِرق والدرجات التي يتوزّع بينها الناس، والاتّجاهات التي يتّجهون "مشتّتين" فيها يوم البعث ﴿ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾. إنّ المجال مفتوحٌ أمامنا بشكلٍ واسعٍ لنتخيّل ما وسِعنا من صورٍ وأشكالٍ لفصائلهم وجماعاتهم وفرقهم وهي تنبعث من القبور، ثمّ حين يساقون جميعاً، بهذه الكتل الهائلة، إلى ساحة المحكمة الفاصلة.

٨ – ليُرَوا أعمالَهم:

نحن من جديدٍ مع الفعل المبنيّ للمجهول، والبناء للمجهوليّة يعني فتح الطريق أمام خيالنا وتوقّده سعياً وراء اكتشاف هذا "المجهول". إنّ "رؤية الأعمال" هنا تتمّ بطريقةٍ غير محدّدةٍ لنا، ثمّ إنّها، كما رأينا، ليست الرؤية الحقيقيّة، وإنّما

هي المكافأة أو العقوبة، ولخيالنا أن يرسم الصور، مرّةً أخرى، لطبيعة هذه الرؤية، والأحكام الصادرة بكلٍّ من الموقوفين، وطريقة صدور هذه الأحكام، ثمّ طريقة تنفيذها.

وممّا قيل في شرح هذه الآية أنّهم يرون أعمالَهم رأي العين؛ فهي تُجسَّم لهم تماماً كما حدثت في الدنيا!

٩ – ١٠ – ذَرّة [مكرّر]:

من الواضح أن المقصود من هذا اللفظ هو (أصغر شيءٍ في الوجود) لأنّ الآية قصدت إلى التمثيل لأصغر عملٍ يعمله الإنسان في حياته. ومع ذلك ذهب المفسّرون في تفسيرها المادّي مذاهبَ شتّى:

فقالوا إنّ الذرّة هي أصغر النمل،

أو هي ما علق من التراب باليد إذا وضعتها عليه،

أو ما يُرى في شعاع الشمس من الهَباء،

أو دودةٌ حمراء لا وزن لها،

وفي الحديث الشريف "الذَرّة لا زِنَة لها".[1]

١١ – ١٢ – يَرَهْ [مكرّر]:

فضلاً عن المعاني الكثيرة المطروحة لهذا اللفظ، يظلّ المعنى النهائيّ الذي اقترحناه له مفتوحاً أيضاً لاحتمالاتٍ عدّة:

فهل ستكون "الرؤية"، في هذه الخطوة الأولى من إجراءات يوم القيامة والحساب، مجرّد "صدور حكمٍ" لصالح، أو لغير صالح، كلّ إنسان؟

(١) انظر:

– القرطبي، محمد بن أحمد. **تفسير القرطبي**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ط.)، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ج٢٠، ص٥١٥٠.

أم هي تنفيذ هذا الحكم مباشرةً من غير نطقٍ بهذا الحكم؟

أم هذا وذاك معاً؟

وكيف يتمّ النطق بالحكم؟

وكيف تتمّ خطوات تنفيذه؟

أم تُراها رؤيةً حقيقيّةً للأعمال، فيطّلع كلّ إنسانٍ على "كشف حسابه"، بطريقةٍ ما، أو ربّما -كما ذهب بعضهم- يرى أعماله تمثَّل أمامه كما وقعت فلا مجال أمامه للإنكار، وهذا قبل أن يساق إلى مصيره، مُكْرَماً أو مُهاناً؟!

ولقد قيل في معناه أيضاً: من يعمل مثقال ذرّةٍ من شرٍّ، مِن مؤمن، يرَ عقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتّى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ، ومن يعمل مثقال ذرّةٍ من خيرٍ، مِن كافر، يرَ ثوابَه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتّى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير.

وجاء في الحديث الشريف:

- بينا أبو بكرٍ يتغدّى [أي يتناول فطوره، وهو من الغداة، ولم يكن في عهده ﷺ وجبةٌ وسطى اسمها (الغداء)، وفي الجامع للسيوطي: كان ﷺ إذا تغدّى لم يتعشَّ، وإذا تعشّى لم يتغدَّ] مع رسول الله ﷺ إذ أُنزلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فأمسك أبو بكرٍ [أي عن الطعام] وقال: يا رسولَ الله: أكلُّ ما عَمِلْنا من سوءٍ رأيناه؟! فقال: ما تَرَون [أي ما ترونه في هذه الدنيا] ممّا تكرهون فذاك ممّا تُجزَون، ويؤخَّر الخيرُ [أي ثوابه] لأهله في الآخرة[1].

(١) النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٨٠، حديث رقم: ٣٩٦٦.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- إذا زُلزِلتِ الأرضُ زِلزالَها:

يمكن الاستشهاد بهذه الآية، أو بجزءٍ منها، عند حدوث كارثةٍ طبيعيّةٍ كبرى، أو وقوع حدثٍ سياسيٍّ أو عسكريٍّ أو اقتصاديٍّ أو اجتماعيٍّ ضخم، أو للتعبير عن ضيق القوم وتبرّمهم من شخصٍ دخل عليهم.

٢- وأخرجتِ الأرضُ أثقالَها:

قد تقال هذه الآية عند انكشاف شخصٍ على حقيقته، أو اكتشاف كنزٍ أو معدنٍ أو ثرواتٍ اقتصاديّةٍ كانت مختبئةً داخلَ الأرض.

٣- يومَئذٍ تحدّثُ أخبارَها:

هذه الآية قد تُستخدم في التهديد بعملٍ كبير، كأن تهدّد دولةٌ بلداً آخر بالحرب: (وعند ذلك ستختبرون قوّتنا وتعرفون أخبارَنا) أو يهدّد متسابقٌ منافسه بيوم السباق (حين يظهر كلٌّ على حقيقته ويَعرف المتسابق الآخرُ خبره ويكتشف قوّته).

٤- يَصدُر الناسُ أشتاتاً:

قد تحزن لضلالة إنسان، أو تفاجأ بأخلاقِ زميل، فتفكّر في مدى تباعد أخلاق الناس، ومن ثمّ اختلاف مصائرهم في الآخرة، فتُعلّق بهذه الآية.

٥- فمن يعملْ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَهْ:

٦- ومن يعمَلْ مثقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَهْ:

كلتا الآيتين قد غدت سائرةً على ألسنتنا للتشجيع بالأولى على عمل الخير، مهما يكن صغيراً، وللتحذير بالثانية من عمل الشرّ مهما يكن تافهاً. قال ابن مسعود: "هذه أحكم آيةٍ في القرآن"، وكان ﷺ يسمّيها: "الآية الجامعة الفاذّة".[1]

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٣٥، حديث رقم: ٢٢٤٢.